

قصة قصيرة

مهمة صعبة



بقلم: د. عماد الدين خليل
العراق

في أمسية مع حشد من الأصدقاء دارت الأحاديث ذوات الشجون في حلقات الفكر والثقافة والسياسة والأمور اليومية.. في عوالم المطالعة والكتب.. وفجأة قاطعني أحدهم قائلاً: إنه يملك ساعة مطعمة بحجارة ألماس كان قد اشتراها في إحدى رحلاته إلى أوروبا، وأنه يود الآن أن يبيعها بإغراء الفارق الخيالي بين قيمتها الراهنة والعملة الورقية. وقال: إنه سمع بأنني سأسافر عما قريب إلى عمان وأنه يرغب بأن يحملني الساعة لكي أبيعها له هناك. أعلنت عن موافقتي على مضض، مجاملة مني، وربما لعدم رغبتني في أن أرد له طلباً، ولعله الضعف عن مجابهة أصدقائنا بحقيقة ما يدور في أعماقنا من مشاعر، وما يحتوشنا من أفكار.

فتح عليه بما جعله يتبرع بإنشاء جامع من ماله الخاص سمي باسمه. تقدموا إلي على استحياء، ونظراتهم مترعة بالتوسل والرجاء. لحت في يد أحدهم قنينة فيها بقايا سائل أصفر لم أتبين ما هو. قال لي بعد أن مد إلي يده مصافحاً:

– نتمني لك السلامة

– شكراً

– ومتى ستعود إن شاء الله؟

– بعد أيام قليلة قد لا تزيد على أسبوع أو أسبوعين

وإذ لحنني أحدق بدهشة في القنينة المرتجفة بيده، نظر هو الآخر إليها قليلاً ثم ما لبث أن قال:

– ثمة رجاء، جئت وإخوتي، مؤملين منك أن

تنفذه.. وها أنت ذا ترى، فقد لحقنا بك قبل أن تركب السيارة وتغادر إلى عمان.

– الحمد لله!

– النية سليمة على ما يبدو!

– إن شاء الله.

ظل نظري معلقاً بالقنينة ذات السائل الأصفر.

– لا أريد أن أطيل عليك، فالدقائق تمضي وأنت

على عجل.. كل ما هنالك، وتوقف لحظات، حيث طغى على صوته الهادئ، المرتجف بعض الشيء، صياح

كنت أعرف جيداً أن اكتشاف الساعة في متاعي عند أحد مراكز الحدود، سيسبب لي المتاعب، وقد يؤول إلى مصادرة الساعة، ولعله، وهذا هو المهم، يلحق بسمعتي ضرراً ويدينني بأنني من تجار السوق السوداء، وربما المهربين، ولعله، وهذا هو الأشد خطورة، كما خيل لي وهمي، سيكون فرصة لتدمير سمعتي في بلدي، فها هو ذا المفكر الفلاني يتحول إلى سمسار!

عدت إلى البيت وأنا أعاني من شيء من القلق، ثم ما لبثت أن نسيت الأمر برمته، فإن بيني وبين السفر أسابيع وربما أشهراً أخرى.

ويوماً وجدتني أسير حلم من نوع غريب..

كنت واقفاً إلى جوار السيارة التي ستقلني وعدداً من المسافرين إلى عمان. كانت الساحة التي تتجمع فيها السيارات والحافلات، غيرها في الواقع.. في المكان الذي يسمى (الحي الصناعي) على بعد خطوات من (وادي عقاب) حيث تنتشر مقابر المدينة.

على حين غفلة، جذبت انتباهي سيارة (سوبر) بيضاء فارغة تدخل الموقف بسرعة وتمر من جوارني ثم ما تلبث أن (تفرمل) بعنف على بعد خطوات مني.. ينزل منها شبان ثلاثة أعرفهم جيداً.. إنهم أولاد رجل من أثرياء المدينة كان يتاجر بالأقمشة، وكان الله قد

- لكنه الوفاء في زمن عز فيه الوفاء .
- المهم أن أنفذ الطلب بتفاصيله .
قال أولهم مقاطعاً وكأنه يذكرني بالتفاصيل خشية نسيان إحدى حلقاتها :
- بمجرد أن تغادر الحدود، تسكب الماء المتبقي، وعندما تعود تكون قد ملأت القنينة في عمان .
- واضح .. وسأحاول إن شاء الله .
صافحني وأخواه بحرارة، الواحد تلو الآخر، ويمموا وجوههم صوب « السوبر » لكي ينسلوا إليها ويقفلوا عائدين وقد اطمأنوا إلى نجاح مهمتهم .. ويممت وجهي أنا الآخر صوب سيارتي

السائق بالركاب أن يهرعوا إلى السيارة استعداداً للانطلاق .. وما لبث أن واصل بسرعة أكبر هذه المرة :
- ليست مهمة صعبة على أي حال، فما عليك إلا أن تأخذ هذه القنينة وبعد أن تجتاز الحدود العراقية الأردنية اسفح ما فيها من بقايا السائل الأصفر، وعند وصولك إلى عمان املاها من جديد، واجلبها معك لدى عودتك ..

أدركت من نظراته، من ملامح أخويه اللذين آثرا الصمت، أنهم يعولون كثيراً على تنفيذ طلبهم هذا، وأنه ليس طلباً عادياً، وأن رفضه لأي سبب كان، قد يصدمهم ويصيبهم بالخيبة، وربما يضيع عليهم فرصة قد لا تعوض!

وللحظات، كان الزمن يمضي فيها بطيئاً متثاقلاً صعباً، وجدتني على مفرق طريق .. خيار صعب بين القبول والرفض، زادته حشيت الحلم ومنطقه الخاص .. امتداداً وهولاً .. نظراتهم المتوسلة وعلاقتي الحميمة بهم كانت تجرني صوب القبول .. والخوف من المجهول .. من احتمال انكشاف المحاولة، عند الحدود، أو أن يكون السائل مادة غير اعتيادية، تدفعني صوب الاعتذار والرفض .

لحظات صعبة كالسنين مرت وأنا أثقل بين الحالين مشدوداً بالقوة أو ذاك، والتحرر من نقطة الشد التي لا تطاق .

على أي حال، ووسط إلحاح السائق على الإسراع بالركوب، وبتأثير قاهر لنظرات الإخوة الثلاثة المترعة بالرجاء والمعلقة على كلمة الرضا، وكأن تلبية طلبهم ستقودهم إلى الخلاص أو تمنحهم المستحيل، ملت إلى القبول وأنا أقول في نفسي : المهم أن أتجاوز نقطة الخيار القاسي الذي لم تبق أعصابي تحتمله وليكن بعدها ما يكون .

مددت يدي لتسلم القنينة، ولحظتهم جيداً وهم يتنفسون الصعداء، والغبطة تكسو وجوههم، وقالوا بصوت واحد :

- لا ندري كيف نشكرك!

- قلت بقدر من عدم الاكتراث :

- ليست المهمة من الصعوبة بحيث تستحق

الشكر .

أدركوا بواعث محاولتي اللحاق بهم بمجرد أن رأوا
القنينة وهي تهتز بيدي.
قلت لهم وكأنني أجابه المستحيل:
- أرجو قبول اعتذاري.

خرجت الكلمات من حلقي جافة متكسرة،
كحطام السوق المصفرة زمن الحصاد.. وأردفت:
- ها هي ذي القنينة!

مدوا إلي أيديهم لتسلمها ونظراتهم محملة بالحزن
والانكسار، لم أسمح لنفسي بأن أهدق أكثر، لئلا
أكتشف من وراء الحزن والانكسار عتاباً من نوع ما قد
لا أحتمله على الإطلاق.. نظرة قد تنطوي على ما
كنت أخشاه طيلة حياتي: ألا تسقط كلمتي على
الأرض!

عدت مسرعاً إلى السيارة معتذراً للسائق
والركاب.. وانطلقت في طريقها إلى عمان.. التفت
قليلاً إلى الوراء.. وعبر الزجاج الخلفي للسيارة لحت
الأصدقاء الثلاثة وهم يغادرون الموقف عائدين محملين
بحزن يصعب وصفه..

وللحظات ينفجر في داخلي ينبوع لا يرحم من
الإحساس بالندم، تمضي روافده المتفجرة لكي تغمر
وجودي كله: العقل والإحساس والوجدان.

إنني أعرف الندم جيداً.. طعمه لا يطاق..
منشاره ينزل بعنف لكي يأكل القناعة والرضا..
ولكنه هذه المرة، وبمنطق الحلم الذي يجسد الإحساس
ويعضي به صوب معدلات أسطورية تعجز عن
ملاحقتها الكلمات.. يصير شيئاً آخر.. شيئاً لا
يطاق.. شيئاً تغدو إزاءه لحظات التردد القاسي التي
وقعت في إسارها مرتين، لا تكاد تذكر إزاء جمر الندم
الذي ينغر في الأعماق.

وأتساءل، وأنا أستيقظ متحرراً من ضغط الحلم،
فأحس بارتياح عميق وسعادة غامرة، وكأنني أزحت
عن كاهلي جبلاً من الهموم: أئمة علاقة أو صلة بين
هذا الذي رأيته، والذي قد يضيع في تفاصيله غير
المعقولة، وللوهلة الأولى، أي معنى أو مغزى، وبين
طلب صديقي بيع ساعته المطعمه بألماس في عمان،
ورغبتني في ألا أرد رجاءه، وتوجّسي المكبوت - في
الوقت نفسه - من أن يسبب لي ذلك أذى أو شراً.

التي ينتظر ركابها بنفاد صبر.

لكن، وعلى حين غفلة، يبرز فجأة أحد أقربائي، لا
أدري من أين، كأن الأرض انشقت عنه، من حيث لم
أكن أتوقع قط.. يقف بعيداً عني، دون أن يبذل أي
محاولة للاقترب ولو خطوة واحدة.. يرفع كفه نحو
محذراً، ينظر إليّ بعتاب ممتزج بالدهشة لقبولي
المهمة.

للوهلة الأولى لم أدرك ما يريد على وجه
التحديد.. نظرت إليه بدوري مرة أو مرتين.. كان
لا يزال يحرك كفه بهدوء علامة الرفض.. يبدو أنه لم
يكن يريد أن يروه، حيث كانت تربطه بهم وشائج
أكثر عمقا وقوة من تلك التي تشدني إليهم. ولحنه
جيداً.. كان خائفاً من أن يروه، ولذا أثر الوقوف في
مكان بعيد بعض الشيء، ولم يشأ أن يقترب أكثر،
ولجأ إلى إرسال شفرته بكفه.. بعيونه.. بكلماته التي
لم تكذ تخرج من شفثيه لكنها كانت توحى بضرورة
التردد قبل القبول.. وشيئاً فشيئاً أخذ يتكشف لي ما
كان يريد. إن المهمة خطيرة قد لا تؤمن عواقبها، وإن
علي أن أرفضها بأي ثمن حتى لو اقتضاني ذلك قطع
الخيوط التي تربطني بهم، حتى لو كلفني التنازل عن
كلمتي التي أعطيتهم إياها.

مرة أخرى أجدني في لحظة الخيار الصعبة، مشدوداً
من نقطة الوسط التي لا تحتل بين الاعتذار والقبول..
ومرة أخرى يمضي الزمن ثقيلًا متباطئًا يجثم على
أعصابي كالجبال، والسائق يضغط على (زماره)
بشكل استفزازي يريدني أن أسرع في الركوب،
والركاب يكادون يفترسونني بنظراتهم المترعة بالغيظ
ونفاد الصبر، وأنا عليّ أن أختار بين التنازل عن كلمتي
وضياع أصدقائي، وبين ما خيل إليّ - بإيحاء قريبي -
أنه مهمة قد تقودني إلى الهلاك.

ما ألبث، بصعوبة يزيد بها الحلم ثقلاً وحراناً، أن أنتزع
نفسي من الأسر، وأن أندفع بقوة لا يشكها أي اعتبار
لقيمة ما، اللهم إلا قيمة تطمين الذات مما قد يمكن أن
يحدث بها صوب الطرف النقيض الآخر، وأهرع إلى
السيارة (السوبر) وهي تتهيأ للانطلاق، متشبثاً بالقنينة
التي تقبع في أسفلها بقايا السائل الأصفر.

لحظني الإخوة الثلاثة من وراء الزجاج، يبدو أنهم